قصة آية

37

فزادهم إيمانًا
وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدي مصطفى



فزادهم إيمانا
وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل

قالَ (تعالى) :

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا
أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)
الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)
فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا
رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

[سورة آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤]

عَسْكَرَ أَبُو سُفْيَانَ بِجَيْشِهِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَدِينَةِ بَعْدَ انْتِهَاءِ غَزْوَةِ أُحُدٍ ، مُنْتَظِرًا الْفُرْصَةَ الْمُوَاتِيَةَ لِكَيْ يُجْهِزَ عَلَى مَا تَبَقَّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَتَخَلَّصَ مِنْهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ

وَخاصَّةً بَعْدَمَا أَصابَهُم فِي هَذهِ الْغَزْوَةِ مِنْ قَتْلٍ وَأَسْرٍ وَمَهَانَةٍ ، وَبَعْدَمَا لَحِقَ بِالْمُسْلِمِينَ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ إِصَابَاتٍ وَجِرَاحٍ .

تَفَحَّصَ أَبُو سُفْيَانَ وُجُوهَ جُنُودِهِ وَقَالَ فِي زَهْوٍ :

ـ لَقَدْ دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، فَقَتَلْنَا مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلاً وَجَرَحْنَا سَبْعِينَ آخَرِينَ .

وَأَضَافَ قَائِلاً :

ـ وَقَدْ قَرَّرْتُ أَلاَّ نَعُودَ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ نَسْتَأْصِلَ هَؤُلاَءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جُذُورِهِمْ .

فَأَجَابَهُ جُنُودُهُ :

ـ نعم الرَّأْى مَا تقول ، وَخَاصَّةً أَنَّهُمْ مَا زَالوا مُثْقلِينَ بِالْجِرَاحِ وَلا يَقْدِرُون عَلى حَمْلِ السِّلاحِ وَالتَّصَدِّى لَنَا .

وَبَيْنَمَا هُمْ عَلى هَذِه الْحَالِ وَيُفَكِّرُونَ بِجدِّيَّةٍ فِى الْعَوْدَةِ إِلى الْمَدِينَةِ وَمُحَارَبَةِ الْمُسْلمِينَ ، إِذْ مَرَّ بِهِم مَعْبَدُ الْخُزَاعِىُّ ، وَكَانَ حَلِيفًا لِلرَّسُولِ ﷺ ، فَسَأَلَهُ أَبُو سُفْيَانَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِه فَقَالَ لَه :

ـ لَقَدْ تَرَكْتُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فِى جَيْشٍ عَظِيمٍ .

فَتَعَجَّبَ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ :

ـ كَيْفَ اجتَمعَ لَهُ هَذَا الْجَيْشُ وَقَدْ قَتَلْنَا وَأَسَرْنَا مِنهُمْ عَدَدًا كَبِيرًا ؟

فَقَالَ مَعْبَدٌ الْخُزَاعِيُّ :

ـ لَقَدْ اجْتَمعَ كُلُّ صَحَابَتِهِ الَّذِين تَخَلَّفُوا عَنْهُ فِي أَثْنَاءِ الْمَعْرَكَةِ ، وَقَدْ رَأَيْتُهُمْ وَهُمْ مُصَمِّمُونَ عَلَى الثَّأْرِ مِنْكُمْ وَالانْتِقَامِ الشَّدِيدِ لِمَا أَصَابَهُمْ عَلَى أَيْدِيكُمْ .

وَلَمْ يَكَدْ أَبُوسُفْيَانَ يَسْمَعُ ذَلِكَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى امْتَلأَتْ قُلُوبُهُم بِالرُّعْبِ وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا وَقَرَّرُوا الرُّجُوعَ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَيَنْتَقِمُوا مِنْهُمْ .

وَفى مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمينَ الْمُثْقَلِ بِالْجِرَاحِ ، أَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُرْسِلَ سَبْعِينَ رَجُلاً مِنْ صَحَابَتِهِ لِكَىْ يُجَاهِدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَيَلْحَقُوا بِالْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُخْرِجُوهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ .

وَبَيْنَمَا الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْخُرُوجِ فِى إِثْرِ الْمُشْرِكِينَ وَيَحُثُّهُم عَلَى ذَلِكَ لِكَىْ يُرْهِبُوا الْعَدُوَّ ، إِذْ جَاءَ مَعْبَدٌ الْخُزَاعِيُّ وَقَوْمُهُ فَسَأَلَهُمُ النَّبِىُّ ﷺ عَنْ أَبِى سُفْيَانَ وَقَوْمِهِ وَمَدَى اسْتِعْدَادِهِمْ ، فَقَالَ مَعْبَدٌ :

ـ لَقَدْ لَقِينَاهُمْ فِى جَمْعٍ كَثِيرٍ ، وَنَرَاكَ فِى

قِلَّة ، ولا نـأْمَنُه علَيــكَ وَعلى أَصْحَابِك يـا رَسُولَ اللّه .

وَلمْ يَعْبأ الرَّسُولُ ﷺ بذَلِكَ ، فَقَدْ عقَد الْعَزْمَ على اتِّبَاعِ الْـمُشْرِكِين أَيْنـمَا كَـانُوا وَإِخْرَاجِهِمْ مِن الْـمَدِينَة .

فَنَادَى الرَّسُولُ ﷺ بذَلِكَ ، أَصْحَابَهُ قَائلاً :

ـ من يذهبُ فى إِثْرِهِمْ ؟

وبِمُجَرَّدِ أَنْ سَمِعَ الْـمُسْلِمُونَ ذَلكَ هَبُّوا وَاقِفِينَ وحَمَلُوا أَسْلِحَتَهُمْ بِرَغْمِ مَا بِهِمْ مِنْ جِرَاحٍ وَتَسابَقُوا لِذَلِكَ وَقَالُوا :

ـ نَحْن جَمِيعـًا طَوْعُ أَمْرِكَ يا رَسُولَ اللَّه ، فَمُرْنَا نُطِعْ !

وَرَأَى الرَّسُولُ ﷺ اسْتِعْدَادَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا وَجِدِّيَّتَهُمْ فِي طَاعَةِ أَمْرِهِ فَأَصْدَرَ أَوَامِرَهُ بِأَلَّا يَخْرُجَ مَعَهُ إِلَّا مَنْ شَهِدَ الْمَعْرَكَةَ بِالْأَمْسِ .

وَعَلَى الْفَوْرِ قَامَ سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَيْنِهِمْ أَبُوبَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَهُمْ يَحْمِلُونَ سُيُوفَهُمْ ، بِرَغْمِ مَا كَانَ يُثْقِلُهُمْ مِنْ جِرَاحٍ ، وَقَالُوا :

ـ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَعْصَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرًا ، حَتَّى وَإِنْ خَرَجَتْ أَرْوَاحُنَا مِنْ حُلُوقِنَا .



فَأَنْزَلَ اللَّهُ (تَعَالَى) فِيهِم قَوْلَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

[سورة آل عمران : ١٧٢]

وَالْقَرْحُ هُوَ الْجُرْحُ الشَّدِيدُ .

وَخَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَصْحَابِهِ السَّبْعِينَ ، وَفِي الطَّرِيقِ قَابَلَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَسَأَلُوهُمْ فِي دَهْشَةٍ :

ـ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُونَ فِي هَذَا الْوَقْتِ ؟

فَقَالُوا فِي حَزْمٍ :

ـ إِنَّ الْمَعْرَكَةَ لَمْ تَنْتَهِ بَعْدُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ عَزَمْنَا عَلَى مُحَارَبَتِهِمْ حَتَّى آخِرِ نَفَسٍ .

فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ فِى اسْتِهْزَاءٍ :

ـ أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ سَتَنَالُونَ مِنْهُمْ شَيْئًا وَأَنْتُمْ سَبْعُونَ رَجُلاً ، بَيْنَمَا هُمْ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ ؟

فَأَجَابَ الْمُسْلِمُونَ فِى ثِقَةٍ :

ـ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .

فَتَظَاهَرَ الْمُنَافِقُونَ بِالنُّصْحِ وَقَالُوا :

ـ نَحْنُ أَصْحَابُكُمُ الَّذِينَ نَهَيْنَاكُمْ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ وَعَصَيْتُمُونَا ، وَقَدْ قَاتَلُوكُمْ فِى دِيَارِكُمْ وَانْتَصَرُوا عَلَيْكُمْ .

وَأَضَافُوا قَائِلِينَ :

ـ فَإِذَا كَانُوا ظَفِرُوا عَلَيْكُمْ فِى دِيَارِكُمْ ، فَمَا بَالُكُمْ لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَيْهِمْ . إِذَنْ لَا يَرْجِعُ مِنْكُمْ أَحَدٌ .

وَجَاءَ جَمَاعَةٌ مِنَ الأَعْرَابِ فَانْضَمُّوا إِلَى الْمُنَافِقِينَ وَقَالُوا مُحَذِّرِينَ :

ـ هَذَا أَبُو سُفْيَانَ فِى جَيْشٍ لَمْ نَرَ لَهُ مَثِيلاً مِنْ قَبْلُ فَاخْشَوْهُمْ وَارْجِعُوا ، فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ .

وَلَمْ يَزِدِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنْ قَالُوا فِى يَقِينٍ :

ـ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ !

ثُمَّ انْطَلَقُوا فِى شَجَاعَةٍ وَثَبَاتٍ إِلَى حَالِ سَبِيلِهِمْ وَسْطَ دَهْشَةِ النَّاسِ وَاسْتِغْرَابِهِمْ .

وأَنْزَلَ اللَّهُ (تعالى) فى هذا الموقف قوْلَهُ (تعالى):

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

[سورة آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]

وواصَلَ الْمُسْلمُون سيْرهُمْ فى تصْميمٍ وعزيمةٍ. وسَمعَ أَبُو سُفْيانَ وجَيْشُهُ بذلكَ، فقذفَ اللَّهُ فى قُلُوبهِم الرُّعْبَ، فرجعُوا إلى مكَّةَ خائفين مُسْرعين ورجعَ النَّبيُّ ﷺ إلى الْمدينة منْصُورًا.

قالَ الْعُلماءُ فى هذا الْمعْنَى:

ـ لمَّا فَوَّضَ الْمُسْلمُون أُمورهُمْ إلى اللَّه،

وَاعْتَمَدُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَيْهِ ، أَعْطَاهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ أَرْبَعَةَ مَعَانٍ :

النِّعْمَةَ ، وَالْفَضْلَ ، وَصَرْفَ السُّوءِ وَاتِّبَاعَ الرِّضَا ، فَرَضَّاهُمْ عَنْهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ .

إِنَّ الآيَاتِ الْكَرِيمَةَ تُرْشِدُنَا إِلَى مَعْنًى مُهِمٍّ ، إِذَا تَحَقَّقَ فِي حَيَاتِنَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا النَّجَاةَ وَالسَّعَادَةَ ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ ضَرُورَةُ تَسْلِيمِ كُلِّ أُمُورِنَا لِلَّهِ (تَعَالَى) وَأَنْ نُفَوِّضَ الأَمْرَ إِلَيْهِ ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِنَا وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَقُولَ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ .

وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُحَقِّقُوا آمَالَهُمْ فِي الْحَيَاةِ بِأَمْوَالِهِمْ

وَنُفُوذِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَقَطْ ، وَأَنَّهُمْ يُمكِنُ أَنْ يَسْتَغْنُوا عَنِ اللَّهِ ، وَأَنْ يَعْتَمِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَحَسْبُ ، وَهَذَا ظَنٌّ لا أَسَاسَ لَهُ مِنَ الصِّحَّةِ ، لأَنَّ اللَّهَ (تَعالَى) هُوَ الَّذِي يَمْنَحُ الإِنْسَانَ السَّعَادَةَ وَالأَمْنَ وَالنَّصْرَ وَرَاحَةَ الْبَالِ ، إِضَافَةً لِمَا يَدَّخِرُهُ لَهُ مِنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ فِي الآخِرَةِ .

لِذَلِكَ فَإِنَّ الإِنْسَانَ عِنْدَمَا يُسَلِّمُ أَمْرَهُ لِلَّهِ وَيَسْتَجِيبُ لَهُ ، يَعِيشُ فِي رَاحَةٍ وَهُدُوءٍ ، لا يَخَافُ مِنْ شَيْءٍ وَلا يَحْزُنُهُ شَيْءٌ ، لأَنَّ الأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ اللَّهِ ، يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعْطِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ

وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

إِنَّ الْمُسْلِمَ يَحْمِلُ مَعَهُ سِلَاحًا مِنْ أَقْوَى الأَسْلِحَةِ الَّتِي تُعِينُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، هَذَا السِّلَاحُ هُوَ : «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» .

إِذَا قَالَهَا عِنْدَ الشَّدَائِدِ انْفَرَجَتْ ، وَإِذَا قَالَهَا سَاعَةَ الضَّعْفِ وَالْخَوْفِ أَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالثَّبَاتِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

ـ «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا

لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا :
« حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » . [رواه البخاري]

وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ لاَ يَكُونُ بِالْكَلاَمِ فَقَطْ وَلَكِنْ بِالْفِعْلِ وَالسُّلُوكِ وَأَنْ تَمْتَلِئَ قُلُوبُنَا بِالْيَقِينِ بِأَنَّ اللَّهَ (تَعَالَى) هُوَ الْقَادِرُ وَحْدَهُ عَلَى أَنْ يَكْفِينَا شَرَّ مَا نُرِيدُ وَأَنْ يُجَنِّبَنَا الأَعْدَاءَ .

اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَى مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ .

رقم الإيداع : ١٧٣٦٨ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولى : ٥ - ٨١٦ - ٢٦٦ - ٩٧٧